

الفصل الثالث
الضباط الأحرار

بعد المحنة

عام 1949, بعد المحنة الكبرى, بعد أن عاد جيش البلاد من فلسطين ومعه المأساة الكبرى... المأساة التي صنعها الخونة والسماسة الذين حكموا الشعب وقتلوا جنوده وضباطه ومزقوا كرامته وسخروا من مقدساته... في ذلك العام بدأت مرحلة جديدة في الموقف السياسي في البلاد, فبعد انتهاء معركة فلسطين بعد تلك المأساة التاريخية, كان على أعداء الشعب أن يبحثوا عن مخرج لهم... فسخط الشعب قد بلغ حدا يهدد بالانفجار, وغضب الجيش بعد أن طعن من الخلف يجب أن يزول...

وكان تنظيم الضباط الأحرار في ذلك الخسائر, خاصة وأنها- أى الخسائر- كانت قد بلغت إلى حد أن الضباط الأحرار قد فقدوا الاتصال بعضهم ببعض...

وقد بدأ الضباط الأحرار يعملون على الفوز لإعادة الاتصال من جديد, وكان هدفهم في هذه المرة تكوين هيئة تأسيسية للضباط الأحرار, ثم السيطرة على الجيش تماماً بتنظيم ضخم متماسك يمكن أن يبعد شبح المأسى عن الجيش وعن الشعب.

وتكونت الهيئة التأسيسية فعلا, وكانت تضم في البداية "جمال عبد الناصر", و"كمال الدين حسين", و"حسن إبراهيم", و"خالد محى الدين", و"عبد المنعم عبد الرؤوف"... ثم تضاعف نشاط الضباط الأحرار بعد تلك الخطوة مما حتم زيادة أعضاء الهيئة التأسيسية, فانضم إليها "عبد الحكيم عامر", و"صلاح سالم", و"جمال سالم", و"عبد اللطيف البغدادي", وكاتب هذه السطور.

وفى يناير عام 1950 أجريت انتخابات رئاسة الهيئة التأسيسية, وانتخبت جمال عبد الناصر رئيساً لها بالإجماع.

وعلى إثر هذا مضيونا نستعد لخوض أضخم معركة فى تاريخ الشعب. بدأنا نعد أنفسنا للاشتباك مع الأعداء تحت سماء هذه البلاد...

وقد كانت البلاد فى ذلك الوقت أشبه بمسرح كبير يشهد العالم فوق خشبته أعنف مأساة إنسانية تعرض لها شعب من شعوب الأرض.

لا عدالة ولا حرية ولا حق فى أرضنا، بل فساد واستبداد وحكم مطلق وسماسة يتاجرون بكل شئ بالسياسة وبالأرزاق والمستقبل نفسه...

مستقبل الملايين، أما مستقبلهم هم فقد كانوا على ثقة من أنه لا توجد قوة فى الوجود يمكنها زحزحتهم عن أماكنهم..

فالاستعمار حليفهم، والرجعية والإقطاع والبرلمان نفسه الذى يسير الأمور، كل هذا رهن مشيئتهم.

لا يوجد غير الشعب:

لم يكن فى مصر أبطال على الإطلاق يمكنهم خوض المعركة ضد هؤلاء الأعداء الطغاة سوى الشعب نفسه فكيف يمكن للشعب أن يخوض المعركة حتى يمكنه التخلص من قيوده كلها...

لم تكن هناك قيادة شعبية يمكنها أن تعد الملايين لهذه المعركة... فحزب الأغلبية الذى يضع الشعب فيه كل آماله قد جاء إلى الحكم فى ذلك الوقت وخاض المعركة- فعلا- لكن ضد الشعب...

فزعيمة ينحنى حتى يكاد يقول للحاكم بأمره فاروق تفضل اركب على ظهري.. وأعوان الزعيم يعملون من أجل شئ واحد فقط ولا شئ غير.. من أجل أن يبقوا كما هو باشوات وأصحاب ضياع وعقار وجاه وسلطان.. فمن إذن يمكنه أن يقود الشعب ويكثله ضد جلاديه... الإخوان المسلمين؟... إن مرشدهم يدخل القصر وخرج منه ليسبح بحمد الحاكم... ويعلن على الملأ أنه ملك كريم.

السعديون؟... إنهم لا يمثلون سوى أنفسهم... ومصالحهم مرتبطة ببقاء النظام كما هو.. بقاء الإقطاع والاستعمار والفساد والخيانة.. بقاء الشعب فى القمقم حبيسا لا يجد مخرجاً..

ماذا بقى من قيادات سياسية؟

بقى الأحرار الدستوريون، وهم توائم للسعديين...

من يتولى المعركة:

كان لابد من معركة مهما كانت الظروف، فمن المحال أن تبقى البلاد فريسة للحاكم وأعدائه وبرلمانته ودستوره.

من المحال أن يبقى الجياع والعرافة والمستعبدون إلى الأبد تدوسهم أقدام العصابات الحاكمة، ويفترسهم المستعمرون.. فكيف يمكن للمعركة أن تبدأ؟..

كما قلت كان لابد من قيادة تتولاها، وكما قلت كان لابد أن تكون قيادة من خارج صفوف حزب الوفد الذى انسلخ عن الشعب يوم أن ضمت قيادته الإقطاع...

ومن خارج صفوف الإخوان الذين لا يؤمنون إلا بالهضيبي.. وبالسمع وبالطاعة... وبولى الأمر الملك الكريم.. كان لابد أن تكون القيادة التى ستخوض الشعب معركة الحياة والحرية غير مرتبطة بقصر أو بحزب من الأحزاب المذكورة، أو بهيئة تتاجر فى الوطنية، فى كل شئ.. كان لابد أن تكون قيادة تربط مصالحها بمصالح الشعب حتى يمكن أن تصمد حتى النهاية لأن فى عدم صمودها الفناء لها.. وللشعب أيضاً..

فأين يمكن أن توجد تلك القيادة.. وكيف يمكنها لو وجدت أن تبدأ فى تكتيل الشعب وخوض المعركة بعد ذلك؟

لقد سبق أن أكدت فى أحاديثى السابقة عن الثورة والديمقراطية، أن ظهور قيادة للثورة المصرية بين صفوف القوات المسلحة هو أمر محتوم مستمد من واقع مصر وظروفها المختلفة...

وكان لا يمكن أن تظهر تلك القيادة خارج تلك القوات وإلا كانت مذبحه يفنى فيها الجيش والشعب قبل أن يفنى الأعداء، فمن غير القوات المسلحة كان يمكن الشعب من خوض معركته ضد أعدائه؟ لأن القوات المسلحة كانت- فى هذه الحالة- ستتضم إلى الجانب الآخر، إلى جانب القصر والإقطاع والاستعمار والرجعية، ليس لأن وحداتها خارجة على الشعب، بل لأن قيادتها كانت خاضعة لأعداء الشعب وكانت تعمل على حماية هؤلاء الأعداء، فالطريق إذن هو تخليص

الجيش من قيادته الخائنة الخاضعة للحاكم والتي تحمى النظام فى البلاد, وبعد ذلك يمكن أن تبدأ المعركة على الفور.. يمكن أن تبدأ الثورة العربية المصرية التى تؤيدها وتحميها القوات المسلحة..

الثورة فى عام 1950

وقد تكونت فعلا قيادة للثورة العربية المصرية داخل الجيش.. وكان تنظيم الضباط الأحرار كما قلت قد كبر وأصبح نشاطه مضاعفاً فى عام 1950.

وبدأت الهيئة التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار تعد العدة للضربة الكبرى كان كل فرد فى تنظيم الضباط الأحرار يؤمن بأنه إما النصر أو الموت..

وكان كل فرد فيهم يستمد القوة والعزم بل الشجاعة من الشعب نفسه, من مشاعر الجماهير وآمالها ورغباتها وسخطها العام على الحكام, ورغبتها الصادقة فى التحرر.

وخرجت المنشورات السرية لتقضى مضاجع قادة الجيش ورجال القصر والحكام, وكانت المنشورات ثورية حددنا فيها أهداف الشعب بصراحة..

لم نحدد فيها مطلباً للجيش أو لضباطه وجنوده..

كل كلمة فى تلك المنشورات كانت مستمدة من اتجاهات رأى العام فى البلاد فالشعب يريد العدالة الاجتماعية ونحن ننادى بها, والشعب يريد القضاء لعى المستعمر وأذنابه نحن نسجل إرادته, والشعب يلعن الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك ونحن نطبع مئات المنشورات لنؤيد وجهة نظر الشعب.

ومضى كل منا يكتل ضباط الجيش فى جميع الوحدات استعدادا لبدء المعركة الشعبية..

أما متى تبدأ المعركة؟ فهذا ما يحدده تقديرنا للموقف بلغة العسكريين وقد الموقف فعلا على أساس قلب نظام الحكم القائم وإحلال نظام جديد مكانه, وحددت المدة لتنفيذ الخطة كاملة- فى عام 1950- بخمس سنوات.. أى أن الثورة ستبدأ عام 1955... وليس فى يوليو عام 1952!...

وفى يناير عام 1951 أجريت انتخابات جديدة للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار وأعيد انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لها للمرة الثانية..

الشعب لا أولادنا..

وبعد ذلك وبينما نحن نعد خطتنا لقلب نظام الحكم على أساس تقديرنا للموقف فى البلاد فى ذلك الوقت, فوجئنا بالبكباشى "عبد المنعم عبد الرؤوف" وهو ينادى بضم تنظيم الضباط الأحرار كله إلى إحدى الهيئات..

ولم يجد "عبد المنعم عبد الرؤوف" من يستمع إليه.. كنا جميعاً نؤمن بالشعب كوحدة.. وارتباطنا به وبأهدافه ككل, لا بهيئة مهما كانت أهدافها.

وأصر عبد المنعم عبد الرؤوف على إخضاع الضباط الأحرار لجماعة الأخوان المسلمين, وقال وهو يحاول إقناعنا بوجهة نظره: إن جميع أعضاء تنظيم الضباط الأحرار يمكن أن يقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من عمل شئ.. من يرعى أطفالهم وزوجاتهم وأهلهم؟

وقال إن انضمامنا لهيئة ما فيه ضمان لعائلاتنا فى حالة ما إذا أصابنا مكروه, فالهيئة المذكورة تتولى رعاية عائلاتنا وأولادنا.

وقلنا له جميعاً: إننا مثله لنا زوجات وأولاد, ويهمنى أن نطمئن على مصيرهم لكن المسألة ليست مسألة شخصية.

فنحن نعد ثورة لا مؤامرة!...

ومصير أولادنا وزوجاتنا لا يعيننا لأن الذى نعمل من أجله هو مصير الشعب لا أطفال الضباط الأحرار...

وقلنا له: إن ارتباط الجيش بهيئة ما يعرض البلاد للفوضى, فالجيش يجب أن يكون خاضعاً للشعب ككل.. وإلا جعلت منه الهيئة المذكورة أداة لتنفيذ أغراضها هي.. وأهدافها هي.. وخططها هي!..

وقلنا له: نحن لا نستطيع أن نبيع أفكارنا ومبادئنا من أجل أطفالنا..

وأصر الضباط جميعاً على رأيهم، فالجيش يجب أن يسان من نفوذ الهيئات والأحزاب، الجيش هو جيش الشعب وليس جيش الهضيبي أو الوفد أو جماعة معينة.

تنفيذ الخطة قبل موعدها..

وكان نجاح فكرة تكوين تشكيلات داخل الجيش أكثر مما قدرنا ففي كل وحدة من وحدات الجيش أصبح لتنظيم الضباط الأحرار أفراد فيها..

لم نكن نتوقع عندما قررنا تكوين تشكيلات بين صفوف القوات المسلحة أن تنجح الفكرة إلى هذا الحد، وكانت الأمور في البلاد تتطور بشكل سريع ومثير..

فقد ظهر مدى إيمان الوفد بالكفاح المسلح فكانت مهزلة القنال التي كان "فؤاد سراج الدين" يتولاها من مكتبه بالداخلية.

ثم بدأ القصر يتآمر، وبدأ الوفد يتراجع، لكن الرأي العام كان في حالة يصعب معها خذاعه.

وكان لابد من ضربة قاصمة تنهى المسألة قبل استفحالها، فالضباط الأحرار كانوا قد بدعوا يساهمون في معركة القنال رغم إرادة القصر وحكومة الوفد..

واجتمعنا وتبين لنا أننا قد نضطر إلى تنفيذ خطتنا قبل موعدها.. أي قبل عام 1955.

لمن يخضع الجيش؟!!

كان نجاح تكوين تشكيلات للضباط الأحرار في جميع وحدات الجيش هو أحد عاملين عاجلاً بتقديم تنفيذ الخطة.. أما العامل الثاني: فهو الأحداث السياسية التي طرأت على الموقف في البلاد بعد حريق القاهرة وكان لابد من اختيار قائد الثورة.. لكي تبدأ الثورة معاركها مع أعداء الشعب في العلن وعلى مشهد من العالم كله...

هنا أود أن أقف قليلاً، فهنا تلعب الظروف دورها.. هنا تتحكم الصدفة، ولا شيء غيرها في الموقف.

لقد كان من رأى "جمال عبد الناصر" وهو رئيس الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار والذي انتخب فى كل مرة رئيساً، والذي كان عليه أن يقود الثورة فى العلن مثلما قادها فى السر قبل 23 يوليو.. أقول كان من رأى "جمال" أن يكون قائد الثورة حاملاً لرتبة كبيرة من رتب الجيش، وكان هناك رأى واحد فقط فى الهيئة يعارض أن يقود الثورة واحد من خارج الهيئة التأسيسية... لكننا اتفقنا- جميعاً- فى النهاية على أن يتولى أحد الضباط الكبار قيادة الثورة، واقترح جمال ثلاثة أسماء: "عزيز المصرى"، "فؤاد صادق"، و"محمد نجيب".

حقيقة "فؤاد صادق":

وبدأت الاتصالات بعزيز المصرى، ولكن الرجل أصر على أن يظل أباً روحياً للثورة وأقنعنا برأيه.

وبقى اثنان.. اللواء "فؤاد صادق"، واللواء "محمد نجيب"..

وذهب "صلاح سالم" لمقابلة اللواء "فؤاد صادق"، ليعرف نواياه..

وكان "عثمان المهدي"- رئيس هيئة أركان حرب الجيش- قد استقال من منصبه فى ذلك الوقت، ولم يكن معقولاً أن يفتح "صلاح" "فؤاد صادق" فى أمر قيادته للثورة.. فهو كان مثل "محمد نجيب" لا يدرى أن هناك تنظيمًا للضباط الأحرار.

وأيضاً لا يدرى أن هؤلاء الضباط الأحرار قد أعدوا أنفسهم للقيام بثورة لقلب نظام الحكم، كل ما كان يعرفه "فؤاد صادق" هو أن بعض ضباط الجيش الصغار لهم رأى معين فى الحالة، وأن هؤلاء الضباط الصغار لا يتعدى نشاطهم إعلان السخط والغضب والأسى..

وأعود إلى مقابلة "صلاح سالم"، و"فؤاد صادق"..

وذهب "صلاح" إليه فى بيته، وقال له: إن رأى العام بين الضباط فى الجيش يرشحه لتولى منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش، وقال له "صلاح": إن هؤلاء الضباط يمكنهم مساعدته لكى يتولى هذا المنصب فهم قوة ولهم نفوذ كبير، وظل "صلاح" يحدثه عن هذا الرأى العام لهؤلاء الضباط فى الجيش حتى اقتنع "فؤاد صادق" وآمن بأنه سيعين رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش..

وأثناء الحديث دق جرس التليفون، ورفع "فؤاد صادق" السماعة، وكان المتكلم هو اليوزباشى "مصطفى كما صدقى"، وكان "مصطفى" على صلة ما بالقصر فى ذلك الوقت، وقال "مصطفى كمال" "فؤاد صادق": إن مرسوم تعيينه رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش سيوقعه مولانا فى الصباح.

وظهرت على فم اللواء "فؤاد صادق" ابتسامة غريبة، ونظر إلى "صلاح" نظرة ذات مغزى. ثم قال وهو لا يزال يمسك بسماعة التليفون: "بتقول إيه يا "مصطفى"؟.. زعق شوية" وأشار "فؤاد صادق" "لصلاح سالم" أن يقترب منه، واقترب صلاح وقرب أذنه من التليفون كما طلب منه اللواء "صادق"، وسمع "صلاح" مصطفى صدقى" يتحدث عن مرسوم تعيين "فؤاد صادق" الذى سيصدر فى اليوم التالى.. ثم وضع "فؤاد صادق" سماعة التليفون.

عرف شخصيته:

فى تلك اللحظة عرف "صلاح" شخصية "فؤاد صادق".

فالرجل شعر بعد أن أبلغه "مصطفى صدقى" بأمر تعيينه أن - الرأى العام - للضباط فى الجيش والذى حدثه عنه "صلاح سالم" لم يعد يعنيه..

وقد كشف "فؤاد صادق" عن شخصيته أمام "صلاح" فجأة، فبعد أن كان قد أبدى استعدادة لتحقيق كل رغبات الضباط وحماية مصالحهم والوقوف إلى جانبهم، انقلب فجأة - وبلا مقدمات - بعد أن عرف أن هؤلاء الضباط لن يكون لهم دخل فى تعيينه، فقد عين والحمد لله..

إن اللواء "فؤاد صادق" كشف عن حقيقة معدنه عندما قال "لصلاح" بعد مكالمة "مصطفى" بالحرف الواحد:

- إذا كنت بقيت رئيس أركان حرب الجيش فده بمجهودى أنا.. وبدراعى أنا.

ثم قال "لصلاح": إنه سيعمل على إقامة النظام الكامل فى الجيش، وإنه لن يسمح بأى نشاط ضد نظم الجيش.

وصمت لحظة ثم عاد يقول "لصلاح" المدهور:

- لازم تفهم أنت والضباط اللي معاك الكلام اللي بقوله ده.. لأنى سأنفذ القانون..
وأنصحك أنك واللى معاك تدوروا على مصالحكم ومستقبلكم ومستقبل أولادكم أحسن..

ولم يتمالك "صلاح" نفسه فقال له وهو حزين آسف:

- دى آخر مرة أخش فى بيتك.. السلام عليكم..

وهم "صلاح" بالانصراف, وسمع "فؤاد صادق" يقول له وهو فى طريقه إلى خارج البيت:

- بيتى مفتوح.. اللي يحب بيجى بيجى.. واللى ميحبش هو حر..

وعاد "صلاح" إلى رفاقه يحدثهم بما دار بينه وبين "فؤاد صادق", المرشح الثانى لقيادة الثورة, وكانت مفاجأة للجميع..

أما لماذا لم يعين "فؤاد صادق" فى اليوم التالى رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش؟, وعين بدلاً منه فى اللحظة الأخيرة حسين فريد فلذلك قصة ثانية, لعب فيها تشكيل الضباط الأحرار دوراً حاسماً..

أين كان "محمد نجيب"؟!

كيف تم الاتصال بنجيب؟

كيف ظهر على المسرح.. وهو الذى لم يكن يعد ثورة أو أى شىء..

لقد كان "نجيب" فى ذلك الوقت قائداً لسلاح الحدود.. ولم تكن له صلة ما بالحركة. ولم يكن يدرى مثل "فؤاد صادق" أن هناك فى الجيش تنظيمًا ضخمًا يعمل تحت الأرض ويعد العدة للقيام بثورة لقلب نظام الحكم..

لم يكن يعلم شيئاً بالمرّة, وكنا فى أواخر عام 1951..

وأعود مرة أخرى إلى الصدفة العابرة, الصدفة التى جعلت اسم "نجيب" يتردد على ألسنتنا وجعلت "جمال" يرشحه مع "عزیز المصرى" و "فؤاد صادق" لقيادة الثورة.

فقد صدر الأمر بنقل نجيب من سلاح الحدود إلى سلاح المشاة..

وعين "حسين سرى عامر" ذنب السراى مكانه.. ولم يكن لهذا النقل من مبرر.

وتردد فى صفوف الجيش أن "محمد نجيب" قد يستقيل بعد اللطمة التى وجهت إليه، وكان الشعور العام فى الجيش ضد "حسين سرى عامر" .. لا لشيء إلا لأنه ذنب للسراى!!
ومن هنا كان العطف على "نجيب".

شعر الجميع أنه ضحية لحسين سرى عامر، ولو كان نجيب نقل أو أحيل إلى المعاش وعين بدلاً منه أى مدير آخر لسلاح الحدود لما حظى بتأييد الرأى العام فى الجيش على الإطلاق، لكن لأن الذى عين مكانه هو ذنب للسراى فنجيب إذن يستحق العطف، ويجب أن يقف الضباط الأحرار إلى جواره وفعلاً حدث عقب أن سرى نبأ اعتزام "نجيب" تقديم استقالته أن اتصل به "جمال عبد الناصر" وقال له:

- "إن الضباط يطلبون منك أن تبقى كما أنت فى سلاح المشاة ولا داعى لتقديم استقالتك".

وقال له "جمال" أيضاً: إن اللطمة التى وجهت إليه إنما هى موجهة للجيش، ولهذا فالجيش يعتزم رد اللطمة بأشد منها!!

هكذا بدأ اتصال الضباط الأحرار باللواء "نجيب"، فهو فى محنة وهم يقفون إلى جواره باعتباره ضحية لذنب السراى..

ومن هنا جاء ترشيحه لتولى قيادة الثورة، ومن هنا بدأ القدر يفتح أمامه أبواب التاريخ!